

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ

تنويرٌ حقيقة الإرادة الإلهية
لقد فسر المحقق الاصفهاني حقيقة الإرادة قائلاً:

وتحقيق هذا المرام يستدعي طوراً آخر من الكلام ربما لا يسعه بعض الأفهام، و لا بأس بالإشارة إلى نبذة مما يتعلق بالمقام، فنقول - وبالله الاعتصام - : لا ريب عند أهل النظر أن مفاهيم الصفات - حسبما يقتضيه طبعها - متفاوتة مترادفة (مفهوم الإرادة يغاير مفهوم العلم) لا متفاوتة مترادفة، وإن كان مطابقها (المعروف و المصدق) واحداً بالذات من جميع الجهات، فكما أن مفهوم العلم غير مفهوم الذات وسائر الصفات، وإن كان مطابقاً مفهوم العلم و العالم ذاته بذاته؛ حيث إن حضور ذاته بوجдан ذاته لذاته و عدم غيبة ذاته عن ذاته، كذلك ينبغي أن يكون مفهوم الإرادة بناء على كونها من صفات الذات - كمفهوم العلم - مبائناً مع الذات و مفهوم العلم، لأن لفظ الإرادة معناه العلم بالصلاح، فإن رجوع الواجب هو الرجوع في المصدق، لا رجوع مفهوم إلى مفهوم، و من البين أن مفهوم الإرادة - كما هو مختار الأكابر من المحققين - هو الابتهاج و الرضا، و ما يقاربهما مفهوماً، و يعبر عنه بالشوق الأكيد فيما.

والسر في التعبير عنها (الإرادة) بالشوق فينا، و بصرف الابتهاج و الرضا فيه تعالى: أتنا لمكان إمكاننا ناقصون غير تامين في الفاعلية، و فاعليتنا لكل شيء بالقوة، فلذا نحتاج في الخروج من القوة إلى الفعل إلى امور زائدة على ذواتنا - من تصور الفعل و التصديق بفائده و الشوق الأكيد - الممilla جميعاً للقوة الفاعلة المحرّكة للعضلات، بخلاف الواجب تعالى فإنه - لتقديسه عن شوائب الإمكان و جهات القوة و النقصان - فاعل و جاعل بنفس ذاته العليمة المريدة (فإنّه دوماً يُعد فاعلاً و مُفيضاً للخير) و حيث إنه صرف الوجود، و صرف الوجود صرفُ الخير، فهو مبت Hwy ذاته أتم ابتهاج، و ذاته مرضية ذاته أتم الرضا. و ينبعث من هذا الابتهاج الذاتي - وهي الإرادة الذاتية - ابتهاج في مرحلة الفعل، فإن من أحب شيئاً أحب آثاره (وحيث إن الله يحب ذاته فسيحب و يريده أفعال نفسه أيضاً) و هذه المحبة الفعلية هي الإرادة في مرحلة الفعل، و هي (الإرادة الفعلية التي تنشأ عن الإرادة الذاتية في حب نفسه) التي وردت الأخبار عن الأئمة الأطهار - سلام الله عليهم - بحدوثها (الإرادة الفعلية لا الذاتية) [1] (فإرادة ذاته يولد إرادة أفعاله أيضاً) لوضوح أن المراد هي غير المراد، دون الإرادة الأزلية التي هي عين المراد؛ حيث لا مراد في مرتبة ذاته إلا ذاته، كما لا معلوم في مرتبة ذاته إلا ذاته. (ففي الإرادة الذاتية يُعد المراد هو الذات المقدس بينما في الإرادة الفعلية يُعد المراد هو الفعل، إذ حب نفسه و إرادة نفسه يُستدعي إرادة أفعاله أيضاً، إذ فمتعلق الإرادتين يتفاوت من هذا البعد)

والوجه في تعبير الحكماء عن الإرادة الذاتية "بالعلم بنظام الخير و بالصلاح": أنهم يصدّد ما (المعيار) به يكون الفعل اختيارياً: (فالمعيار للفعل اختياري إلهي هو العلم مع رضاه)

1. و هو (إذن) ليس العلم بلا رضا، (فليس المراد من مفهوم الإرادة هو مفهوم العلم بل الإرادة الذاتية مصدق العلم الإلهي) و إلا كانت الرطوبة الحاصلة بمجرد تصور الحموضة اختيارية و السقوط عن حائط دقيق العرض بمجرد تصوره اختيارياً فيوجد العلم بلا رضا.

2. وكذلك ليس (معايير اختيارية الفعل) الرضا بلا علم، و إلا كانت جميع الآثار والمعاليل الموافقة لطبائع مؤثراتها و عللها اختياريةً (بينما المعلول والأثر ليس اختيارياً) بل الاختياري هو الفعل الصادر عن شعور و رضا، فمجرد الملاعة و الرضا- المستفادين من نظام الخير و الصلاح القائم- لا يوجب الاختيارية، بل يجب إضافة العلم إليهما.

فما به يكون الفعل اختياريا منه- تعالى- هو العلم بنظام الخير، لأن الإرادة فيه- تعالى- بمعنى العلم بنظام الخير، وهذا الذي ذكرنا مع موافقته للبرهان مرموز اليه في كلمات الأعيان[2] بل مصرح به في كلمات جملة من الأركان، وأما توهם: أن الإرادة بمعنى الجدّ و فيه- تعالى- جدّ يناسب مقام ذاته^T ففيه أن الجدّ لا معنى له هنا إلا ما يعبر عنه: تارة بتصميم العزم، و أخرى بإجماع الرأي، و هو لا يناسب مقام ذات الواجب، بل يناسب الممكн الذي يحصل له التردد، و يتعقبه حينئذ تصميم العزم و إجماع الرأي.

تشقيق الإرادة إلى شقين ثم تفرّغ المحقق الاصفهاني إلى شعب الإرادة قائلاً:

ثم إن تقسيم الإرادة إلى التكوينية و التشريعية؛ باعتبار تعلق الأولى (التكوينية) بفعل المرید بنفسه، و تعلق الثانية (التشريعية) بفعل الغير- أعني المراد منه- .

توضيحه: أنّ فعل الغير:

1. إذا كان ذا فائدة عائدۀ إلى الشخص (المكاف) فينبعث- من الشوق إلى تلك الفائدة- شوق إلى فعل الغير بمحاجة ترتّب تلك الفائدة العائدۀ إليه، و حيث إنّ فعل الغير- بما هو فعل اختياري له- ليس بلا واسطة مقدوراً للشخص، بل بتبع البعث و التحرير إليه؛ لحصول الداعي للغير، (إرادة صدور الفعل اختياري من الغير هي إرادة تشريعية فليس الأمر و البعث من نمط الإرادة لأنّ إرادة الله هي تكوينية) فلا محالة ينبعث للشخص شوق إلى ما يجب حصول فعل الغير اختياراً، و هو تحريكه إلى الفعل، فالإرادة التشريعية ليست ما تعلق بالتحرير و البعث- فإنهما من أفعاله (التكوينية) فلا مقابلة بين التشريعية و التكوينية- بل التشريعية هي الشوق المتعلّق بفعل الغير اختياراً.

2. و أما إذا لم يكن لفعل الغير فائدة عائدۀ إلى الشخص، فلا يعقل تعلق الشوق به (فلا يطلق عليها الإرادة التشريعية بل تعد إرادة تكوينية لنفس أفعاله تعالى) بداعه أن الشوق النفسي لا يكون بلا داع، نعم ربما يكون إيصال النفع إلى الغير بتحريكه- أمرا، أو التماسا، أو دعاء- ذا فائدة عائدۀ إلى الشخص، فينبعث الشوق إلى إيصال النفع بالبعث و التحرير، و لا وجه لعدّ مثله إرادة تشريعية، فان متعلّقها (الإرادة التشريعية) إيصال النفع إلى الغير بتحريكه، و هو فعله لا فعل الغير (إذ لا تعود فائدة من البعث إلى الشخص).

إذا عرفت ما تلونا عليك فاعلم: أن حقيقة إراداته- تبارك و تعالى- في مرتبة ذاته ابتهاج ذاته بذاته (فيشتاق إلى حب ذاته) لما سمعت غير مرة: أنه- تعالى- صرف الوجود، و الوجود- بما هو وجود- خير محسن، فهو صرف الخير، و الخير هو الملائم اللذيد الموجب للابتهاج و الرضا، فهو صرف الرضا و الابتهاج، كما كان صرف العلم و القدرة- لا ان منه ما هو علم، و منه ما هو قدرة، و منه ما هو إرادة- فالمراد بالإرادة الذاتية نفس ذاته المقدسة بالذات (بخلاف الإرادة الفعلية- كإرادة الخلق- التي تعود إلى الإرادة الذاتية) كما أن المعلوم (الأول قبل أي شيء) في مرتبة ذاته بالذات نفس ذاته (فلا تغاير بين العالم و العلم و المعلوم في ذات الله تعالى) و كما أن غيره (تعالى) معلوم- بنفس علمه بذاته- بالعرض و التبع، كذلك غيره (من المخلوقين) محظوظ بالعرض و التبع بنفس محبة ذاته لذاته (و هي الإرادة بالعرض لأنّها محبوبة بالعرض).

(و النكتة المثالیة هنا هي): و كما أنَّ كل ما يوجد في دار الوجود له نحوٌ من الحضور في مرتبة الذات لا بالذات بل بالعرض، كذلك كلَّ ما يدخل في دار التحقق له نحوٌ من المرادية و المحبوبية في مرتبة الذات بمرادية الذات، بمرادية أخرى بالعرض لا بالذات، وإن كان لكلَّ موجود معلومية أخرى (بالعرض) و مرادية أخرى في غير مرتبة الذات.

وَعُنَوا لِهَا الْكَلَامُ نَسْتَدْكُرُ الْآيَةَ التَّالِيَةَ: وَإِنْ مَنْ شَيْءَ إِلَّا عَنَّا خَرَأَنَّهُ وَمَا نُنْزَلَهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ.[3] فَمَا سُوِّيَ اللَّهُ حَتَّىَ الْمَجَرَادَاتِ
قَدْ انْدَرَجَتْ ضَمِنَ خَزِينَةِ عِلْمِ اللَّهِ، فَالْخَزِينَةُ بِمَعْنَى الْمَنَبِعِ، فَكُلُّ شَيْءٍ قَبْلَ خَلْفِهِ قدْ حَضَرَ لَدِي عِلْمِ اللَّهِ وَحِيثُ إِنَّ اللَّهَ يُعَدُّ مَنَبِعَ
إِفَاضَةِ كُلِّ الْمَوْجُودَاتِ بِدَائِيَّةً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَخَتَاماً إِلَىِ الْأَرْضِينَ، فَحَقِيقَتْهَا الْجَذْرِيَّةُ قدْ تَحَقَّقَتْ لَدِيِ اللَّهِ مِنْذَ الْأَزْلِ، بِحِيثُ إِنَّهَا
كَانَتْ مَتَعَلِّفَاتِ الإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ بِالْعَرَضِ، وَأَمَّا الإِرَادَةُ الْذَّاتِيَّةُ فَقَدْ تَعْلَقَتْ بِذَاتِهِ فَحَسْبٌ، وَلَهُذَا فَمَا سُوِّيَ اللَّهُ يُعَدُّ مَحِبُّوَّاً وَمَرَادًا
بِالْعَرَضِ، ثُمَّ أَكْمَلَ الْمَحِقَّ حَوَارَهُ قَائِلًا:

و من ذلك كله يظهر للقطن العارف: أنَّ النَّظَامُ الْتَّامُ الْإِمْكَانِيُّ صَادَرٌ عَلَى طَبْقِ النَّظَامِ الشَّرِيفِ الرَّبَّانِيِّ، وَهَذَا أَحَدُ الْأَسْرَارِ فِي عَدْمِ إِمْكَانِ نَظَامٍ أَشَرَّفَ (وَأَعْلَى) مِنْ هَذَا النَّظَامِ (إِذْ هَذَا النَّظَامُ الْمُوْجُودُ قَدْ خُلِقَ وَفَقَ الْعِلْمُ الْمُطْلُقُ إِلَهِيٌّ فَعِلْمُهُ الْمُطْلُقُ تَسْتَدِعِي تَحْقِيقَ نَظَامٍ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ الْمُمْيَّزَةِ ، فَلَا يُعْقَلُ تَحْقِيقُ نَظَامٍ يُغَايِرُ هَذَا النَّظَامَ الْأَتْمَ إِذْ النَّظَامُ الْتَّامُ الْإِمْكَانِيُّ قَدْ تَجَلَّتْ مِنْ ذَاتِهِ الرَّبَّانِيِّ تَامًاً) وَ حِيثُ لَمْ يَقُعِ الْكُفُرُ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَ الْإِيمَانِ مِنَ الْكَافِرِ، كَشَفَ ذَلِكَ عَنْ عَدْمِ تَعْلُقِ الإِرَادَةِ الذَّاتِيَّةِ بِهِمَا (بِلْ قَدْ تَعْلَقَتْ إِرَادَةُ تَشْرِيعِيَّةٍ بِفَعْلِ الْغَيْرِ بِالْعَرْضِ) وَ عَدْمِ دُخُولِهِمَا (الْإِيمَانُ وَ الْكُفُرُ) فِي النَّظَامِ الشَّرِيفِ الرَّبَّانِيِّ، وَ إِلَّا (لَوْ انْدَرَجَ الْإِيمَانُ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَ الْكُفُرُ لِلْكَافِرِ ضَمِّنَ الإِرَادَةِ التَّكَوينِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ) لَوْجَدَا فِي النَّظَامِ الْتَّامِ الْإِمْكَانِيِّ (وَتَحْقِيقُ الْمَرَادِ مُؤْكَدًا بِحِيثُ لَامِنَ كَافِتُهُمْ بِالْإِرَادَةِ الذَّاتِيَّةِ، بَيْنَمَا إِرَادَتُهُ الْعَرْضِيَّةُ التَّشْرِيعِيَّةُ قَدْ تَعْلَقَتْ بِأَفْعَالِ الْمَكْلُوفِينِ مِمَّا اخْتَيَارُهُمُ الْكُفُرُ أَوِ الْإِيمَانُ)

[1] اصول الكافي - نشر المكتبة الاسلامية : 1 / 85-86 / باب الإرادة ...، و توحيد الصدوق (رحمه الله) - باب صفات الذات و الأفعال/ الحديث 15-19 / ص: 146-148 .

[2] القبسات للسيد الدمامد (رحمه الله) - تحقيق الدكتور مهدي محقق - ص: 322، و الأسفار 6: 333.

[3] سورة الحجر، الآية 21.

[4] توحيد الصدوق (رحمه الله) - نشر جماعة المدرسین - ص: 64 و هو مقطع من الحديث: 18.

[5] نهاية الدرية في شرح الكفاية، ج 1، ص: 283.